التعليم المسيحي في بعده المسكوني

مداخلة قدس الارشمندريت بولس يازجي
عميد معهد القديس يوحنا الدمشقي اللاهوتي – البلمند

مؤتمر التعليم المسيحي الثاني للشرق الأوسط (٢١-٢٦ آب ٢٠٠٠)

مقدّمة

"إنّ ألف سنة في عيني الربّ كيوم أمس الذي عبر" [١]

ولكنّ، رغم ذلك، تبقى المفاصل التاريخيّة، ولحظات إعادة الحسابات، والتخطيط من جديد أحداثاً ترتكز على أيّام معيّنة، يسمّيها الناس عموماً مناسباتٍ أو أعياداً. وكلّما اقتضت الحاجة إلى "تجديدها" علينا أن نجد "عيدها" المناسب.

اليومَ، وبعد انقضاء ألفي سنة على ميلاد المسيح، يمكننا أن نجد في السنة الأولى من الألفية الثالثة أفضل مناسبة لإعادة قراءة الماضي تحت منظار المشيئة الإلهية "بفكر المسيح"[٢]، ولتخطيط العمل البشاري والخدمة الصالحة حتّى تتساير مع زمنها كما تسايرت البشارة المسيحيّة في حقبات ماضية مع زمنها.

إن التفكير بمؤتمر عن التعليم الديني كـ "بشارة جديدة على أبواب الألفية الثالثة" مناسبةٌ مؤاتيةٌ لرمي نظرة عميقة على المواضيع المطروحة كلّها حتّى تعالجَ بالجديّة المطلوبة.

ولعلّ الموضوع المطروح الآن: "التعليم المسيحي في بعده المسكوني" يتطلّب منّا تجديدَ أمرين. الأوّل إعادة تحريك ما ورثناه من الماضي، والثاني تجديده امتداداً وعمقاً إذا أمكن، ملاحظين بذلك مستجدات عديدة أضافها تاريخ الحوار الكنسي وكذلك التطورات التاريخية والاجتماعية والرعائية في كلّ كنيسة، كما العولمة الجديدة.

---

[١] مز ٩٠: ٤

[٢] ١ كور ٢: ١٦

طرق معرفة الله

إنّ طرق معرفة الله، كما أوضحها العهد الجديد، هي ثلاث: الضمير قبل التقليد الابراهيمي وخارجه، والناموس في زمن العهد القديم في نسل ابراهيم، والنعمة بعد التجسد. بولس الرسول يكلّمنا علناً عمّن ليس لهم ناموس، الذين يعملون أعمال الناموس "بناموس" ضميرهم[٣]. وعنده يتّضح الصراع القائم في الكنيسة الأولى بين عهد الناموس "المدرِّب"[٤] وبين عهد النعمة زمن "الأبناء"[٥].

المسيح رأى في المقوسة ابنة لإبراهيم[٦]؛ وفي زمن خاص لم يتراجع عن مكالمة السامرية[٧] وعن الاستجابة لطلب الكنعانية[٨]. التقليد المسيحي يعرف ما يسمى بـ "الكلمة المنثورة"[٩]. الأديان كلها كما يعبر عنها هي خيوط مختلفة بيد الله يشد بها الناس إليه.

إن تفوق المسيحية يكمن في أنها الطريق الأوضح، الأقصر، الأسهل، والأضمن. و هذا الأمر يضعنا أمام مسؤولية وليس في موقف المتعالي. ملء الزمان واكتمال الكشف الإلهي في تجسد الرب يسوع (من رآني فقد رأى الآب)[١٠] تقابله كلمة الرسول: الويل لي إن لم أبشر"[١١].

كان هناك سابقان للمسيح، يوحنا المعمدان، ملاك يمهد أمامه طريقه بين اليهود[١٢]. وأيضا الفلاسفة (في نظر آباء الكنيسة) كسابق يمهد الطريق له بين الأمم[١٣]. ومن هذا المنظار، العطش الإنساني إلى الحقيقة هو عطية إلهية للإنسان زرعت في صورة الله التي خلق عليها.

يبقى تجاوز الضمير سهلا، والخطر من أن يقتل الحرف الروح في الناموس واردا، كما أن عهد النعمة لم ينج من تأثير الميول البشرية في تفسير الكشف الإلهي الذي تسلمناه. نظرة سريعة إلى عالمنا المسيحي تؤكد أن العنصر البشري أساء أحيانا كثيرة عن جهل أو عن ضعف إلى هذا الكشف الذي يبقى أبدا اكتشافا إنسانيا بطريقة ما. فالكشف الإلهي ليس فرضا ولا إنزالا إلهيا بل

---

[٣] رومية ٢: ١٤-١٥

[٤] غل ٣: ٢٤

[٥] غل ٤: ٤-٧

[٦] لو ١٣: ١٦

[٧] يو ٤: ٧-٩

[٨] متى ١٥: ٢٢-٢٨

[٩] القديس يوستينوس، كتاب الدفاع الأول (١: ٤٦) وكتاب الدفاع الثاني (٢: ١٠ و١٣). راجع أيضا: Leblanc, J., **Le Logos de S. Justin**, Ann. Phil. ., 1904, 191-197.

[١٠] يو ١٤: ٩

[١١] ١ كور ٩: ١٦

[١٢] لو ١: ١٦-١٧

[١٣] رستم، أسد، **آباء الكنيسة**. القرون الثلاثة الأولى، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٣١ و ٨٠ و١٢٤.

صعوداً إنسانياً يتطلب طهارة الحياة واستنارة الذهن. فمعرفة الله الحقّة هي عشرته حتى الاتحاد بـــــه، وأكثر من يستطيع أن يتكلم عن الله هم خلانه.

الكشف الإلهي الأقصى، الحقيقة المطلقة هي بالنهاية "يسوع المسيح" الذي قدّم لـــه الكـــلام المنثور ودرّب من أجله العهد القديم. ويتابع الروحُ القدس كشفه وتكوين جسده السري الكنيسة.

لذلك، إن معرفة الله مرتبطة جوهرياً بالأسرار الكنسية (العيش في الكنيســــة). ولمعرفـــة الله دائماً طابع العشرة وليس الاضطلاع. إذاً ليس هنالك من حقائق، إنّما هناك حقيقة واحدة هي الـــربّ يسوع. ولكن الدور البشري جعل إليه مقاربات مختلفة وطرقاً متعدّدة. من هنا نشأت في المســــيحية كلمة "الأرثوذكسية" بمعناها الحقيقي وليس الطائفيّ. الحقيقة دائماً هي الكاثوليكيّة (أيضاً ليس بـالمعنى الطائفيّ). ليست الكاثوليكيّة موضوعاً جغرافيّاً أو ديموغرافيّاً وبالحريّ ليست موضوعاً سياسيّاً.

الكاثوليكية Καθολικότη῞ تعني كمال الحقيقة، أي عكس الهرطقة Aἷρεσισ التي تعني نزع جزء منـــها. الكاثوليكية تعني تماماً الأرثوذكسية.

مبادىء التعليم المسيحيّ المسكونيّ:

١ً – أن يكون كاثوليكيّاً – أورثوذكسيّاً، أي أن تكون صورة المسيح فيــــه كاملـــةً غـــير مُنتَقصة.

٢ً – أن نعترف بأنّ صيغ الإيمان (العقائد) وحدوده لم تأتِ منزلةً، و لم تخرج بغالبيتها مــــن الكتاب المقدّس وإنّما هي نتاج الفكر البشريّ في محاولته الدؤوبة للتعبير عن سرّ التدبير الإلهي كمـــا جاء في الكتاب المقدّس. وأن هذه المحاولة مرّتْ وتمرّ في تاريخ لعبت فيــــه الحضـــاراتُ والسياســـةُ والظروفُ البشريةُ كلّها دوراً هاماً. لذلك فإن مسيرة البلورة هذه كانت وما تزال شائكة. فالعقـــائد، حتّى "الأورثوذكسية" منها، جاءت وليدة نموّ – أو تطوّر– فالصيغ تحـــاول أن تقـــارب الإيمـــان. والعقيدة تُعَلَّم "بتاريخ العقائد". وهذا الأمر يجعلنا مسؤولين عن سماع الصيغ المختلفة وتقبّل الحـــوار المسكونيّ، المهمّ هو ألاّ تسيء العقيدة (الصيغة) إلى الإيمان وبالتالي إلى الخلاص إذ أنها مرتبطة مباشـــرة بالحياة.

٣ً – إن الحقيقة والصيغ أيضاً، ليست مُلْكيةً خاصة، فالأورثوذكسية والكاثوليكية (بـــالمعنى المشروح سابقاً) هي رسالةٌ وليست مُلكاً شخصياً. من ناحية أخرى نحن ورثنا غالباً هـــذه العقـــائد وليس لنا فخر إلاّ بنقلها، وبالتالي بالحوار والاضطلاع المنفتح.

٤ً – أن نفرّق بين التقليد والتقاليد، بين الحقيقة والتعابير، بين الإيمان والصيغ. فالتقليد هو أننا تسلمنا الروح القدس ليعمل فينا ونعمل معه. والإيمان هو الحياة بالمسيح باختلاف صيغه. التقليد والإيمان لا يتبدّلان لكنّ التقاليد والصيغ متأثرة بكل عوامل تاريخ الفكر البشري ولها الحق أن تتنوّع ويجب أحياناً أن تتبدّل. فالصلاة صلاة ولكن موسيقاها لون حرّ. علينا إذاً أن نتقبّل تعدّد الصور للحقيقة الواحدة. وهذا الأمر كان منذ بداية المسيحية. أليست الأناجيل مثالاً حياً عن ذلك، فهي صور متعدّدة ومختلفة ومتباينة بين بعضها البعض، ولكنها تعكس الحقيقة الواحدة. إن جمعها يعطي صورة أوضح للمؤمن عن "سرّ يسوع المسيح الذي أتى بالجسد"[١٤].

٥ً – أن نقرأ الآخر ليس من خلفيتنا وتقاليدنا لكن من خلفيته وتقاليده. أن نقرأ الآخر كما يريد هو وليس كما نتصوّره نحن. أي أن نسمح للآخر أن يعبّر عن ذاته لنا وليس أن نحكم عليه من أحكامنا المسبقة سلبيةً كانت أم إيجابيّة. إن الحوار الحاليّ بين الكنائس الأرثوذكسيّة الشرقيّة والكنيسة الأرثوذكسيّة أظهر حالة كهذه.

٦ً – لا يمكننا أن نتكلّم عن حوار وعن تعليم مسكونيّين عندما تنعدم أقلّ شروط الاحترام ونمارس "حركات الاقتناص" –مع كلّ ما تحمله هذه الكلمة من ثقل على مسامعنا. وتاريخ كنيستنا في الشرق الأوسط شهد، ولا يزال يشهد أحياناً، صراعات قويةً بسبب ذلك. إنّ توقيف هذه الحركات هو إشارة على صدق التعليم المسكوني وشرطه الأسبق.

٧ً – يجب التركيز في واقعنا المسيحيّ في الشرق الأوسط على غالبية مفاهيمنا الإيمانيّة المشتركة مع احترام أسباب التمايز، التي قد لا تكون دائماً عقائدية وإنّما تاريخية، أو غير ذلك.

٨ً – أن لا نتجاهل الفروقات وأن نلتزم الواقع كأصدق طريق لتحسينه. علينا أن نتكلّم على هذه الفروقات وعلى كيفية فهم كلّ طرف لها وعلى وجهات نظره في تفسيرها. علينا أيضاً أن نتابع وأن ننقل آخر مستجدّات الحوار الكنسيّ على مختلف الأصعدة بشأن هذه المواضيع، وما هي الصعوبات الباقية وما هي التطلعات لحلّها.

[١٤] رومية ١٦: ٢٥

٩ – أن نربط العقيدة بحياتنا اليوم ونؤومها مبينين تأثير الفوارق حينما توجد على مسيرة الخلاص والحياة بالمسيح. التعليم المسكوني يجب أن يكون بعيدا عن الجدل العقيم. المسألة ليست جدلا فلسفيا ولكنها حوار مسيحي حياتي. لذلك على التعليم المسيحي أن يتناول مسائل الحياة العصرية وأن يعالج تحديات الزمن الراهن من منظار الإيمان ووجهات النظر المختلفة حولها. فلا يخفى علينا اليوم أن مواقف الكنائس المختلفة تجاه أهم مسائل الحياة وأقدسها، كالحرب والزواج وتنظيم الأسرة والألم [١٥] ليست واحدة. وكل ذلك يعود لخلفيات التعليم المتعددة ولتفسير "فكر المسيح" بأفكار متباينة!!. إن دراسة الفروقات العقائدية أو المتلاقيات على زمنها يفصل العقيدة عن الحياة والتعليم عن الإنسان فيخاطب معالجاته الفكرية ولا يمس خصوصيته الشخصية.

١٠ – أن نركز على حقيقة الإنجيل كبشارة خلاصية وليس كتعاليم أخلاقية، أو على أحسن حال كروايات لها طرق تفسير متعددة إن لم تكن مختلفة، عن المسيح. الإنجيل بشارة بموت الرب وبقيامته حتى نموت معه ونقوم. هذه هي البشارة الوحيدة والمتجددة التي يجب على التعليم المسيحي المسكوني أن يحملها وأن يدعو إلى الالتزام بها. على التعليم المسيحي أن يقلب الإنسان من "مسيحي لا مبال"، وقد يكون مجادلا، إلى "سفير المسيح في العالم"[١٦].

عندما يغلب الطابع التعليمي والتفسيري، عندها تزداد الجدالات والخلافات، وهذه ثمرة هذا المنطلق الخاطىء. ولكن عندما يتضح التعليم الديني كدعوة "لإكمال ما نقص من آلام المسيح في أجسادنا"[١٧] تتقارب وجهات النظر؛ وهذا ثمرة الانطلاقة الأحق والأسلم.

١١ – أن نهتم خاصة برفع الوعي بضرورة الوحدة المسيحية والحوار الداخلي أمام مسؤولية البشارة الخارجية، تلك المسؤولية المشتركة الملقاة على عاتق المسيحيين أجمعين أمام تحديات الإلحاد المعاصر والعولمة الرهيبة.

الإلحاد المعاصر ليس انكار الله، هذا الأمر هو الحاد غابر. اللامبالاة هي إله الإلحاد المعاصر، الابيقورية الجديدة في المسيحية هي سرطانها. الله ليس في سماه ونحن في دنيانا. الاعتراف بوجود الله دون الايمان أن وجوده هو حياتنا يعني قتله بصورة مبطنة.

---

[١٥] راجع مثلا: معلوف، جوزيف، **الطب والأخلاق، جونيه، ١٩٩٧**؛

Paraskevaidis, Christodoulos K., **Clonningand DNA, in the Service of Life or Disaster?**, Athens, 1995; Hopko, T / Harakas, S., *A Survey of the Attitudes of Word Religions to the Right-To-Die*, in: Gerald A. Larue (Ed.), **Euthanasia and Religion**, Los Angeles, 1985

[١٦] افس ٦: ٢٠؛ ٢ كور ٥: ٢٠

[١٧]

العولمة سلاح قاطع ذو حدين بإمكانها إما أن تعولم الكنيسة أو أن يمسحن العالم. وسائل الاتصال وتمازج التيارات وسرعة التواصل كلها أطلقت الصراع السريع والحر بين كل الثقافات. لا يمكن للمسيحية في أيام المسح الفكري للحضارات أن تلتهي بصراعاتها الداخلية وتتناسى مسؤولية تمليح العالم ورفع نوره على المكيال ليضيء للجميع[١٨].

إن التركيز على ضرورة البشارة وعلى التزام مسائل الإنسان في التعليم المسيحي وعلى توجيه التطور الحضاري وضبط التفجرات والقفزات العلمية الجديدة الجبارة في منحاها الأخلاقي المفيد، والسيطرة على "الجنون الإنساني" للإبداع وجعله مقدسا وليس هداما يخفف من الجدالات التي تريد أن تقرأ من الماضي أسبابا للخلاف متناسية النداء الإلهي الملح لتأريخ المستقبل. نحن لسنا اليوم بحاجة لقراءة التاريخ بقدر ما نحتاج لتأريخ المستقبل البشري والتخطيط له. خلافاتنا العقائدية محترمة لكنها بالوقت ذاته درس من التاريخ لصياغة المستقبل العالمي والمسيحي بشكل أقرب إلى رغبة يسوع، لا بل لقبول رسالته الموكلة إلينا أن نذهب ونتلمذ العالم معمدين إياهم[١٩] وأن نكون في العالم وليس منه[٢٠]، وأن نكون واحدا كما هو والآب واحد[٢١]، آمين.

[١٨] متى ٥: ١٥

[١٩] متى ٢٨: ١١

[٢٠] يو ١٥: ١٧-١٩

[٢١] يو ١٧: ١١